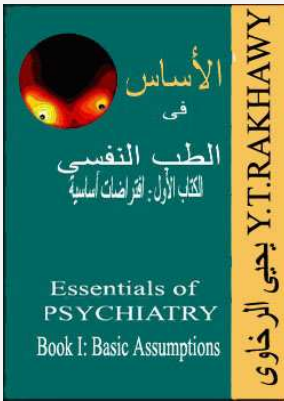


الــــثلاثاء 12-10-2010

1138 - الأساس في الطب النفسي



الأساس في الطب النفسي

من منظور تطوري: منطلق ثقافي

2010

الكتاب الأول : الافتراضات الأساسية

Essentials of Psychiatry

An Evolutionary Approach

(Cultural Considerations)

Book 1

BASIC ASSUMPTIONS

مقدمة :

هل يمكن أن تشمل نظرية واحدة كل شيء؟ ماذا أعني بـ "كل شيء"؟ لا أعرف، لكنني وجدت نفسي أفسر كل شيء بها، وهذا وحده دليل عدم صدقها، أو لعله السبيل إلى التحقق من صدقها .

وهل يمكن أن أبدأ هذا العمل بعرض معالم النظرية وأبعادها أولاً، وقد حاولت ذلك -تقريباً - سنة 1980 ضمن محاضرات لم تنشر على المستوى العام؟ ويبدو أن عزوفى عن نشرها حتى الآن يرجع إلى ما سوف أقوله حالاً:

ثم هل يمكن أن تحدد معالم نظرية ما، ظهرت من واقع الممارسة أساساً، في عمل جامع كهذا الذى نحن بصدده ثم لا تصبح وصية على ما بعدها (كما سيُعرض من فروض وخبرات ورؤى) برغم أنها لم تتدعم وتستحق التسجيل الخالى إلا من هذه الممارسات الواقعية النقدية طول الوقت؟

ثم أدعو المتابع أن يلاحظ وجود محورين أساسيين بشكل متكرر في كل هذه الأعمال التي تلونت بهذه الجملة، يغلب أحدهما هنا، ليتقدم الثاني هناك، ألا وهما:

"التطور"،

"والإيقاع الحيوى"،

(ومن ثمَّ اسم النظرية : التطورية الإيقاعية).

خذ عندك هذه الخطوط العريضة واعتبرها "مشروع فهرس" لما سوف نعرضه في هذا العمل دون التزام بالترتيب، (برجاء المشاركة في تعديله أو تطويره، مع الشكر).

1- لا يوجد مؤشر واحد، أو صفات مستقرة محددة، إذا اتصف بها شخص ما يمكن أن يقال إنه "صحيح نفسياً". إن لكل مرحلة من مراحل النمو شكلاً وترتيباً وألويات، تتحقق بها ما يسمى الصحة النفسية

2- إن الإنسان وهو على قمة الهرم التطورى للحياة، يحوى تاريخه كله حتى الآن، وهو يعيد "بسطه" Unfolding في دورات غير مغلقة، فهو يكرر باستمرار مراحل نموه من الفيروس (أو ربما: من اللاحياة) إلى ما يسمى الهوموسابيانز، (الإنسان العاقل)، على أن هذه الإعادة، (والاستعادة) لا تنتهى في كل دورة نمو (دورة تطور ذاتي) إلى نفس النقطة، وإنما تحقق نقلة نوعية - مهما ضوّلت- تعلن تواصل النمو، يحدث ذلك بشكل مكبر أثناء ما يسمى "أزمات النمو" المتلاحقة (وأشهرها "ثمان عمور للإنسان": إريك إريكسون) ، لكنه يحدث أيضاً في وحدات زمنية أقل فأقل (حتى تصل إلى التناهي في الصغر: أنظر بعد)، وهو يحدث طول الوقت، وتقوم علاقات النمو الفردى بعد ذلك بتدعيم مراحل التطور مرحلة فمرحلة، وقد تم من خلال ذلك استيعاب مدرسة "العلاقة بالموضوع"⁽¹⁾ مع أنها كادت تنفى العامل البيولوجى، بدءاً بنقد فرويد مع أنها خرجت من عباءته.

هذا التوجه الاستعادي التطورى النابض - من واقع الممارسة - هو الذى كان حاضراً طول الوقت في كتابي الأم "دراسة في علم السيكوباثولوجى : شرح ديوان سر اللعبة 1979

3- إن ما يسمى الغرائز هي برامج تطويرية حيوية تحملها منذ بدء الحياة، وهي تتطور وتتشكل باستمرار، لكنها تظل مرتبطة بأصلها بشكل أو بآخر، وهي تتجلى في الكائن البشرى بتجليات تختلف عن تجلياتها فيمن، وفيما، قبله، وبالتالي فإن إنكارها، أو التنكر لها يمثل إعاقة جسيمة على مسيرة التطور، أما الاعتراف بها واستيعابها للانتقال إلى شكلها الأرقى فالأرقى فهو ما يحتويها ، ويطلقها إلى ما تعبد به من تجليات بعيدية مما نعرف أو لانعرف، وقد تناول المؤلف في تطبيقه هذه الفرضية ثلاثة غرائز بصفة مبدئية: غريزة

العدوان باعتبارها - الآن في شقها الإيجابي- برنامجا تفكيكيا كجزء لا يتجزأ من عملية الإبداع للتشكيل، جنباً إلى جنب مع دورها الدفاعي الهجومي (برنامج الكر- الفر)، ثم الغريزة الجنسية وامتداد وظيفتها من التكاثر إلى التواصل البشرى الخلاق، وثم أضاف المؤلف فرضه عن وجود برنامج بيولوجي توازن ممتد أساه "الغريزة التوازنية الإيقاعية"، انطلاقاً من امتداد الإيقاع الحيوى البشرى الفردى فالجمعى إلى الإيقاع الحيوى الكونى الممتد.

4- إنه لا يجوز التوقف عند تصنيف البشر إلى شخص "جنون" وشخص "عادى" وشخص "مبدع"، وإنما الأقرب إلى مفهوم الإيقاع الحيوى هو افتراض أن كل شخص دون استثناء يدور بين هذه الحالات الثلاثة "حالة الجنون، وحالة العادية، وحالة الإبداع" بدرجات أقل من ظهورها الكامل فى الوعى الظاهر، إلا نادراً، اللهم إلا فى "حالة العادية"

5- إن الإنسان الفرد، وهو يكرر أطوار نمو نوعه ليكتمل بها فيكفلها، يلتقى بصعوبات التواصل مع "آخر" يقوم بنفس الدور، ثم ينتظم فى جموع آخرين، وبالتالي هو يكتسب خبرات، ويفطر إلى ابتداء برامج جديدة، وأيضاً يتم التراجع عن برامج قديمة بتطويرها دون إلغائها أو إنكارها أو قمعها أو تهيمشها، يتم ذلك بوعى نسي، فيضع الوجود الفردى للإنسان فى منحة خاصة بالمقارنة بسائر الأنواع، وتجلى هذه المنحة بشكل مميز فى مجال ما يسمى الحرية، وتنظيم المجتمع، والتأثير المتبادل بين الفرد والمجموع والبيئة، وكل هذه الخفايا لا تقل من دور الإيقاع الحيوى ولا من تأثير برامج التطور البيولوجى الأساسى، وإنما هى حركية تسعى إلى محاولة تنظيمها بما يدعم حركية التطور لنوع، فى مساحة متاحة حركية إرادة الفرد (الحرية) بمشاركة التنظيمات الجماعية الممكنة.

6- إن فصل الوظائف النفسية عن بعضها البعض... هو ضرورة وصفية، وربما أكاديمية، لكن التماهى فى ذلك الشق أو التوقف عنده إنما يعرض الإنسان لدرجات مختلفة من الاغتراب العادى، أو أكثر من ذلك.

7- إن اختزال الوظائف النفسية إلى ظاهرها السلوكى يقزم الوجود الإنسانى ويوقف التطور، وقد ترتب على هذا الاقتصار على الظاهر السلوكى عدم الاستفادة من فروض عاملة للتعرف على التركيب البشرى من ناحية (السيكوباثولوجى)، والإسهام فى إعادة تشكيله من ناحية أخرى (العلاج).

8- إن مفهوم الوعى- وهو لم يتحدد بشكل كاف عند المؤلف- إنما يتضح تدريجياً، وباستمرار من خلال الممارسة، وما تقدمه الخبرة حتى الآن هو التأكيد على أن الوعى ليس قاصراً على هذا الشعور الظاهر الذى ضده اللاوعى (اللاشعور)، فلم يعد يكفى أن نصف الوعى بأنه "الوساد" الذى تتحقق فيه فاعلية الوظائف الأخرى وكأنه أرضية الوظيفة وليس جزءاً منها.

الوعى -غالبا- هو برنامج منظومى متعدد، والأفضل أن نتحدث عن "وعى أول" و"ثان" و"كثير"، من أن نتصور أن ثمّ وعيا واحدا له مستويات عدة. والأرجح أن "أنواع العقول" التى قال بها دينيت هى منظومان الوعى التى نشر إليها هنا حالا، كما أن "مفهوم مستويات الوعى"، الأكثر تعددا وتبادلا هى الأقرب إلى ما، بما يسمى "حالة العقل" State of Mind بلغة العلم المعرفى العصبى، وهو ما يقابل - غالبا - ما يسمى "حالة الذات" Ego State فى التحليل التركيبى (إريك بين).

9- إن التعامل مع الزمن لفهم الطبيعة البشرية من ناحية، والإسهام فى إعادة تشكيلها بعد تعثرها أو تفسخها من ناحية أخرى (العلاج) يحتاج مراجعة عملية، وليس فقط تنظيرا فلسفيا، أو فهما لبعد رياضى أحدث، إن وحدة الزمن المتناهية الصغر (اللحظة وحدتها: بشلار) هى المجال الأعمق للفاعلات المغيّرة فى النمو، وفى العلاج على حد سواء. إن العجز عن فحص ما يحدث فى هذه الوحدة الزمنية المتناهية الصغر، لا ينبغى أن يؤدى إلى إنكارها اكتفاء بتضخيم قيمة الوحدات الكمية التتابعية الأكبر فالأكبر، وعلينا أن نقيم واقعية وجود وفاعلية "اللحظة المتناهية الصغر"، بالفروض العاملة، وبناتج ما يتحقق لاحقا (مهما طال الوقت) مما يمكن إرجاعه إلى تلك اللحظة المتناهية الصغر، إن العجز عن التعامل مع الزمن من هذا المنطلق، والاكتفاء بتحديد العلاقة بالزمن بالبعد الكمي التتابعى المتاح، إنما يتم على حساب التعرف على وظائف جذرية تحدث بطبيعتها فى زمن بالغ القصر (مثل الإدراك)

10- إن اللغة ككيان جوهري فاعل يميز الإنسان خاصة، قد أتاحت قدرا هائلا من التواصل، وفرصا مترامية من التشكيل، لكن حين تواصل عدوانها برموزها على كافة وسائل التواصل الأخرى، التى حفظت الحياة، وأبقت الأنواع تاريخيا، كادت أن تصبح عائقا ضد التطور وضد النمو، ومن هنا وجب السعى إلى تنمية آليات بالتكامل والتبادل بين كل مستويات ولغات التواصل والتعبير بين البشر وبعضهم البعض، وبين مستويات الوعى الممتدة أيضا.

11- ثم شك كبير فى ما يسمى التاريخ المحكى، فى مقابل التاريخ المسجل فى خلايا الكائن البشرى "هنا والآن"، وبالتالي فإن مناقشة ونقد مصداقية التاريخ على المستوى العام، والمستوى الفردى (خاصة فى سياق العلاج)، هو جزء لا يتجزأ من الاقتراب مما يسمى الموضوعية البيولوجية، فى مقابل الاغتراب الحكائى، وفى هذا ما فيه من دعوة لإعادة النظر فى مفاهيم علاجية شائعة، وأيضا لمحاولة فهم أعمق لمعنى التركيز على "هنا والآن" فى العلاج وغيره.

12- إن إشكالية الفروق الفردية، بما فى ذلك زعم الفروق بين ما هو مرآة وما هو رجل، هو أمر يمكن حله من خلال مفهوم النمو المشترك للاثنتين نحو هدف إنسانى تطورى موحد، ولو كان أبعد من مستوى الوعى الحالى.

13- إن الموت يعتبر اقوى ممثل لحضورالواقع الموضوعي، وهو علامة ماثلة على مسار الزمن الفردي لم يثبت زيفها أبدا حتى الآن، إن الوعي بمحيقة الموت موضوعيا، هو الخافز الأكثر فاعلية لجعل الحياة زاخرة بما تستأهل، كما أن للموت بعد موضوعي آخر غير يقين "أنه قادم لا محالة"، وقد وضع المؤلف فروضا لم تكتمل مثل أن الموت - بلغة الوعي - هو نقلة من الوعي الشخصي إلى الوعي الكوني (قد عثرت على هذه المقولة في متون هرمس فيما بعد)، وأيضا أنه أزمة نمو أخيرة في حياة الفرد وكذلك أيضا أن وعى الموت، هو تطوير لوعى الحلم في جلد مع وعى الحياة بما يجدد إحياء اللحظة (الزمن) باستمرار.

يحيى الرخاوى

المقطم في 2010/10/11

- يحيى الرخاوى: محاضرات انتقائية في الطب النفسى Selected Lectures in Psychiatry مطبوعة متبادل، لم تنشر على المستوى العام.

- يحيى الرخاوى: (مستويات الصحة النفسية على طريق التطور الفردي، نشرت في مجلة الصحة النفسية، مجلد 13، عدد 7 العدد السنوى 1972، 51 صفحة، ثم تحديث وإضافة محدودة : في يوميا نشرة الإنسان والتطور، عدد 142، بتاريخ 20-1-2008.

Eric Erickson : 8 ages of man -

- Object Relations theory: Melanie Klien, Fairbairn & H Guntrip

- يحيى الرخاوى: دراسة في علم السيكوباثولوجى : شرح ديوان سر اللعبة 1979 (968 صفحة)

- يحيى الرخاوى: العدوان والإبداع مجلة الإنسان والتطور، المجلد الأول العدد الثالث يوليو 1980، تم تحديثها في مجلد فصول المجلد العاشر العددان 3: 4 ، 1992

- يحيى الرخاوى : الغريزة الجنسية من التكاثر إلى التواصل: محاضرة ألقيت في منتدى أبو شادى الروي لجنة الثقافة العلمية 1998/12/15

- يحيى الرخاوى : (الغريزة التوازنية الإيقاعية وتطور الإنسان) مؤتمر سانت كاترين سنة 2002، وأيضا إلى PP

- يحيى الرخاوى "جدلية الوجود والإبداع" مجلة فصول - المجلد السادس- العدد الرابع 1986 (30-58) وقد تم تحديثها دون مساس بجورها في كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" المجلس الاعلى للثقافة 2007 .

- يحيى الرخاوى " الحرية والجنون والإبداع" مجلة فصول - المجلد الخامس- العدد الرابع 1986 (30-58) وقد تم تحديثها

دون مساس بجوهرها في كتاب "حركية الوجود وتحليلات الإبداع" المجلس الاعلى للثقافة 2007 .

- كمثال: (ماهية العواطف وتطورها من التهيج البيولوجى العام إلى المعنى) (الإنسان والتطور عدد إبريل 1984 ، ثم أعيد النشر هنا في النشرة اليومية (نشرات عن ماهية الوجدان وتطوره بتاريخ 14-11-2007) سلسلة لم تكتمل، فضلا عن ما سيرد ذكره في الكتاب الثانى (علم السيكوباثولوجى الوصفى) المزمع نشره كل أربعاء بعد هذا الأربعاء.)

- بعض ما نشر في هذه النشرة متعلق بهذا الموضوع : مثل (1) دور العين الداخلية - والحواس الداخلية عموما في تفسير وعلاج الهلاوس (2) لعبة " دانا لما بافهمشى يمكن، لعبة "نعمل حلم" .. (3) الاضطراب الجوهري للفكر في الفصام وعلاقته بالإبداع.

- كما ذهبنا في نقدنا لكتاب أنواع العقول للفيلسوف "دانيال دينيث" مما عرضنا موجزه هنا في النشرة ، وأيضاً
P.P.

- يحيى الرخاوى الوحدة والتعدد في الكيان البشرى، نشرت في مجلة الإنسان والتطور، عدد اكتوبر 1981، ثم نشر عنها في يوميا نشرة الإنسان والتطور، عدد 89، بتاريخ: 11-28-2007، ثم يوميا نشرة الإنسان والتطور، عدد 92، بتاريخ: 1-12-2007، ثم يوميا نشرة الإنسان والتطور، عدد 263، بتاريخ: 20-5-2008، إلخ.

- يحيى الرخاوى : إشكالية الزمن، مجلة الإنسان والتطور عدد إبريل سبتمبر 1988

- ماهية تعدد قنوات التواصل في العلاج الجمعى بألعاب متفرقة نشر بعضها في النشرة اليومية مثل تعرية زيف واغتراب الواصل بين البشر بتاريخ 26-9-2007، عن التواصل والطفولة والبراءة بتاريخ 12-10-2007 .. إلخ.

- يحيى الرخاوى : في شرف صحة نجيب محفوظ، وأى مكان ذكرت فيه مصداقية التاريخ، مثلا نشرات : 15-4-2010، 7-2010-10

- يحيى الرخاوى (تحرير المرأة وتطور الإنسان : المجلة الاجتماعية القمية المجلد الثانى عشر : سبتمبر 1975 العدد الثانى الثالث، تم تحديث في الموقع : تحريرالرجل قبل ومع تحرير المرأة نشرة 21-3-2010 www.rakhawy.org

يحيى الرخاوى: دورات الحياة وضلالات الخلود: ملحمة الموت والتخلق في ملحمة الخرافيش لنجيب محفوظ، مجلة فصول المجلد التاسع، العدد الأول والثانى سنة 1990، ثم كتابى قراءات في نجيب محفوظ الهيئة العامة للكتاب عام 1992.